السيد السنوسي وتخوم مصر الغربية

مهما تكن الاسباب التي حملت دول اوربا على هذه الحرب الضروس فلم يكن ثمت موجب لاشتراك تركيا معهنَّ فيها لان ليس لها مغنم منها ولا هي مضطرة اليها ولا تعود عنها الاَّ بالخسران سواء كان الفوز للحلفاء او لدول الاتحاد الالماني . وما يقال عن تركيا بنوع خاص يقال بنوع اخص عن قبائل العرب المؤتمرة بامر السيد السنوسي سواء كان هجومها على التخوم المصرية برضاهُ او بغير رضاهُ

ولقد اهتمت الحكومة العثمانية بامر السيد السنوسي في عهد الحرب الطرابلسيَّة لكي يساعدها على الايطاليين . وفي شهر مايو من سنة ١٩١٢ عام انور بك (وكان يوشك في درنه يحارب الايطاليين) ان السيد السنوسي قادم من كفرة الى جغبوب لزيارة مقام جدّه وراس الطريقة السنوسية . فانتدب وفداً للسلام عليهِ وكان الوفد مؤلفاً من البكباشي نوري بك رئيساً (شقيق انور) . والدكتور عبد الغني بك المفتش الصحي لفرقة درنه والقائم مقام احمد بك صوان و ٢٠ جندياً من اليادة و ٤ من السواري . وكان مع الوفد ٢٧ جملاً ٢٠ منها لحمل الماء

اما جغبوب فعلى ٤٠٠ كيلو متر من درنه جنوباً بشرق . وتقطع القوافل هذه المسافة في ١١ يوماً . وقد قصَّ الدكتور عبد الغني بك خبر تلك الرحلة فقال ما خلاصتهُ منقولاً عما جاء في جريدة الالستراسيون الفرنسوية بقلم المسيو ديون

نزلنا في مساء اليوم الاول من رحلتنا في مكان يقال لهُ العزية وهو الزاوية الثانية التي بناها السيد السنوسي الاكبر . وقد بناها على اطلال قلعة يونانية رومانية . وفي هذه الزاوية نحو ١٥ بيتاً و ٤٠ نفساً

وفي اليوم التالي غادرناها فبلغنا بعد اربعة ايام آبار « أقيم » وهي خمس وعليها حارس اسود من قبل السيد السنوسي للعناية بالآبار وتوزيع الماء منها بالقسط . وقد قال لنا ان ماء الآبار لا يجف ولو بلغ القيظ غايتهُ . اما الماء فمذب امر السيد السنوسي بان لا يشرب منهُ الاَّ السيَّاح والذين يقصدون جغبوب لزيارة ضريح السنوسي الاكبر . ولكن رجال القوافل والتجار الذين ينقلون التمر من سيوى الى بنغازي يشربون منهُ ويسقون جمالهم ويملأون قربهم مقابل نقود يدفعونها الى الحارس

ثم غادرنا اقيم فبلغنا محطة « القصيف » بعد ثلاثة ايام وكنَّا نسري ليلاً تفادياً من حر النهار ونهتدي في سرانا بالنجوم لا غير . وكان دليلنا رجل من العرب اجرتهُ ٤ جنيهات في الشهر .

وارض الضيف منثورة بعظام القطعان التي يأتي بها زائرو مقام السيد السنوسي ليخبروها ، وذلك انهم يبلغون الضيف وخرانهم على آخر رمق من فرط العطش وكثيراً ما لا يجدون الماء الكافي لها فتموت بالالوف قبل نحرها في جغبوب . ومثل هذا قد يصيب تجار الغنم في مسيرهم من الغرب الى القطر المصري

وبعد مسيرة يومين بلغنا بئراً يقال لها ثانية الضيف حفرها السيد السنوسي الحالي ولكن ماءها كبريتي لا يسوغ شربهُ الاَّ الجمال . ثم بلغنا جغبوب بعد نصف يوم

وقبل وصولنا اليها التقطت من وجه الصحراء كثيراً من الاصداف البحرية المتحجرة على اختلاف انواعها ومن عظام الانسان والحيوان حتى صار لديَّ مجموعة بديعة النظام . ولكني اضطررت ان اترك جانباً كبيراً منها لما تركتنا برقة على عجل بعد نشوب الحرب بين الدولة العثمانية وممالك البلقان . اما الاشياء المهمة منها فعهدت فيها الى نوري بك فجاء بها الى الاستانة

استقبلنا في جغبوب شيخ الزاوية سيدي محمد الذي فاعطانا منزلاً لنقيم فيهِ نحن وسائر الذين معنا . وهو وكيل السنوسي في جغبوب ينتمي الى عائلة قديمة جدًّا ومعهُ فرمان من السلطان منحهُ فيهِ وحدهُ امتيازاً بالاتجار بين الفيل في طرابلس . وهو تاجر غنيٌّ اصلهُ من قدامس ولكنهُ اختلف مع الوالي ففرَّ الى جغبوب . اما ما علمتهُ عن السيد السنوسي وطريقتهِ وجغبوب فملخَّص بما يلي

في سنة ١٢٧٣ هجرية الموافقة سنة ١٨٥٨ ميلادية بنى السنوسي الاكبر سيدي محمد زاوية صغيرة هناك . وهو جزائري عالم وزاهد حجَّ البيت مراراً . وقد اكرمت القبائل لقياهُ فجعل يشرح لهم الكتاب حتى طار صيتهُ في العلم والتقوى كل مطار . ولما رأى ماهم عليهِ من الجهل والغباوة بنى لهم في الجبل الاخضر زاوية سماها الزاوية البيضاء وطفق يلقنهم العلم ثم انشأ طريقة امتدَّت شيئاً فشيئاً حتى انتشرت في معظم العالم الاسلامي وتوفي في جغبوب ودفن فيها فبنى لهُ ابنهُ مقاماً فخماً جميلاً يقال ان اسماعيل باشا اعطاهُ اياهُ

وقد خلف سيدي محمد السنوسي ابنين — سيدي المهدي وسيدي محمد الشريف . اما سيدي المهدي الذي خلفهُ فلهُ ابنان ايضاً وهما سيدي رضا وسيدي ادريس . واما سيدي محمد الشريف فلهُ خمسة اولهم سيدي احمد الشريف وهو السنوسي الحالي

وسكان جغبوب الآن ٣٥٠ نسمة وليس فيها تجارة ولا بيع . بل ليس هناك دكان ولا قهوة والمكان كلهُ اشبه الاماكن بادية الرهبان . ومعظم اهل المكان رجال متعبدون استأذنوا

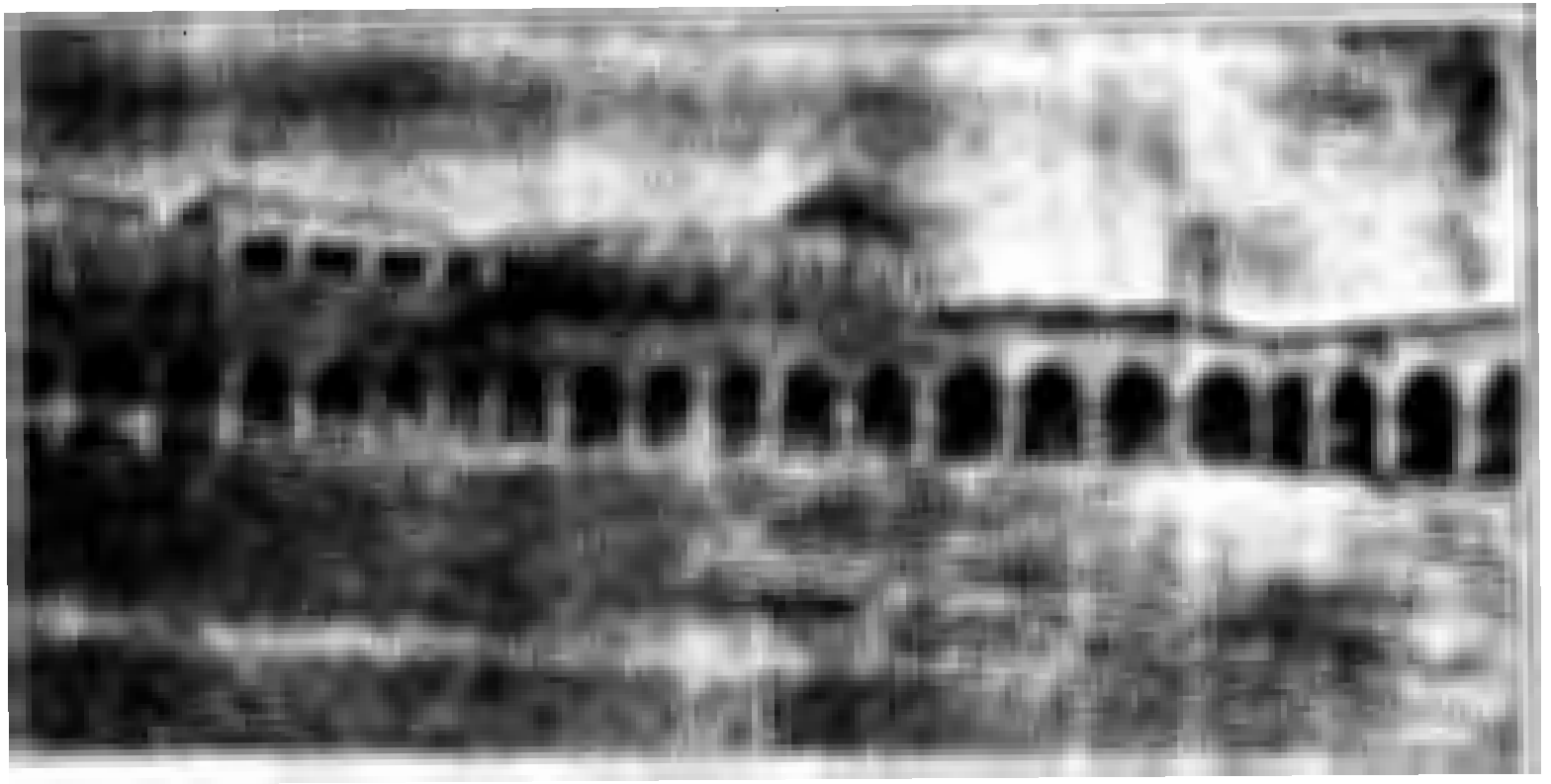

جامع جنبوب

(١) المأذنة (٢) ضريح السنوسي الأكبر (٣) منزل السيد السنوسي الحالي

مقتطف ابريل ١٩١٦
امام الصفحة ٣٦٥

السيد السنوسي في السكنى هناك هم واهلهم فلا يخرجون منهُ الاَّ باذنهِ ولا عمل لهم الاَّ العبادة والذكر

والقبائل ترسل بعض ابنائها الى مدرسة هناك متصلة بالجامع لدرس القرآن وهم يأتون بزادهم وفراشهم معهم . اما الزاد فاكياس من الشعير يسندونها الى جدران غرفهم ويضعون خبزهم وادامهم منها . واما فراشهم فلاعة يلتحفونها وحصيرة يفترشونها وهذا كافر للذين انصرفوا الى الدرس والعبادة . وفي الزاوية ايضاً ٨٠ عبداً اسود للخدمة في الجامع والضريح وما اليهما من الحدائق . والزاوية تعطي كلاً منهم ٥ كيلو غرامات من الشعير في الاسبوع

والجامع كبير طول صحنهِ ٣٥ متراً وعرضهُ ٣٠ وعلى جوانبهِ اروقة فيها ابواب مصاريعها من الخشب الهندي المخرم المنقوش أُتي بها من بلاد الهند ويدخل منها الى بلاط الجامع وهو قائم على اساطين طويلة طول كل اسطوانة منها سبعة امتار عليها سطح مقبب مستدير ويوصل من البلاط الى هيكل الجامع وهناك تربة السيد محمد السنوسي وتابوتهُ من الخشب تحتهُ قطعة كبيرة من الرخام يحيط بها درابزون من النحاس لهُ باب مصفح بصفائح الفضة وقد كتب عليه نسبهُ

وكان سكان جغبوب في عهد السنوسي الثاني سيدي المهدي ٣ آلاف نسمة . فحفر الآبار الارتوازية وزرع بساتين النخل والرمان وكروم الزيتون والمباطخ حتى كان منها حدائق غنّاء . وسنة ١٨٩٦ غادر جغبوب قلقاً من جوار الانكليز والترك واوغل في الصحراء مسيرة ١٥ يوماً حتى وقف عند كفرة . وما كاد يخرج من جغبوب حتى تبعهُ معظم اهلها وبقيت جغبوب مزاراً للسنوسية فلا يسمّى حاجّاً من يحج الكعبة ما لم يزر قبر السنوسي ايضاً

وارسل السلطان عبد الحميد وفداً للسلام على السنوسي الاكبر برآسة صادق باشا وبطريق مصر وواحة سيوى . وعاد فارسلهُ ثانية للسلام على السنوسي الثاني في كفرة . وانما حدا بعبد الحميد على ارسال الوفود الى السنوسي اولاً وثانياً خوفهُ من السنوسية لاشدة حب السنوسي فسلط عليها منافساً ينافسها وهو الشيخ ظافر مؤسس الطريقة الظافرية فبنى هذا بعض الزوايا في برقة ولكن نفوذ طريقتهِ لم يتجاوز جدران زواياها

وبقي وفد انور في جغبوب ثلاثة اشهر يترقب وصول السيد السنوسي . وكان الحرّ قد اشتد الى درجة لا تطاق ولكن اعتدال الليالي كان يخفف عنا بعض ما كنا نعاني من الحرّ وكان طعامنا خبز الشعير وشرابنا ماء الآبار الآسن فلازمتنا الدوسنطاريا ولم تفارقنا . واذا اقبل احد الكبراء لزيارة الضريح نحروا لهُ جملاً او جملين وفرقوا لحمهما على اهل جغبوب . وكنا ندخن سرّاً لان السنوسي حرّم التدخين ولكن اهل المكان دروا بنا وشكونا

اليه ليمنعنا من التدخين . وفي جغبوب بعض النساء على ما علمنا ولكننا لم نرَ واحدة منهن ولو محجبة . واتفق ذات يوم اني صورت بعض المشايخ بآلة فوتوغرافية صغيرة كانت معي . ولما كانوا لم يروا من قبل آلة مثلها ولا عرفوا ما هي لم يبالوا بما فعلت . فعدت الى منزلنا مسروراً وطفقت اظهر الصور واذا بجلبة خارج المنزل ورجال دخلوا علينا مغيظين غير مستأذنين وصائحين لقد سرقتم وجوهنا ووجوه اشياخنا لتأخذوها الى الكفار والله اعلم بما سيتالنا من اذى هذا السحر . ثم توعدونا بكسر الآلة . فطيبت قلوبهم وسكنت روعهم واقنعتهم باني لا اريد بهم سوءا وقلت اني ساكسر هذه الآلة الشيطانية ثم كسرت اشياء لا قيمة لها ومزقت بعض اوراق لا نفع منها . فكن ما جاش من جاشهم وسرّي عنهم وانصرفوا راضين

وكنت اصور الصور فيما بعد سرًّا وانفح البعض بالهدايا فلا يفشون امري ولكن كثيراً من الصور اتلفهُ الرمل والماء الكبريتي الذي اضطررت الى استخدامهِ في اظهارها

ومرّ شهر مايو و يونيو و يوليو ولم يحضر السيد السنوسي . ولكن قدم من كفرة في شهر يوليو قافلة فيها عشرة جمال تحمل كتباً هي الكتب التي يستصحبها في اسفارهِ ورحلاتهِ و يرسلها امامهُ واخيراً قيل لنا انهُ قادم بحاشية كبيرة وكان اغسطس قد انتصف . ثم شاع بعد ذلك بقليل ان قائم مقام كفره كان قادماً في طليعة حاشية السنوسي فمات في الطريق هو وسائر من كان معهُ من الرجال والنساء والعبيد والاماء . قبلما بلغوا ابار جالو بيوم واحد

وفي ٦ سبتمبر خرجنا لاستقبال السيد السنوسي الى مكان يبعد مسيرة يوم ونصف عن جغبوب اسمهُ ابو سلام . وابلغناه اننا قدمنا لتقديم واجب الاحترام والخضوع وكان الوقت ظهراً فقيل لنا انهُ وقت القيلولة وان السيد يستقبلنا عند الزوال . وكان الى يمين خيمتهِ رايتان من نسيج اسود وابيض وعليهما الآيات القرآنية . وهما مغروزتان في الرمل بين خيمة السنوسي من جهة وخيم شيوخ الزوايا الآخرين . ووراء هذه الخيم خيم العبيد والحشم

وفي المساء دعينا لزيارة السيد فركبنا خيولنا الى ان صرنا على ٢٠٠ متر من خيمتهِ فنزلنا ومشينا كرامة . حتى اذا صرنا على ٥٠ متراً قيل لنا ان اخلعوا نعالكم من ارجلكم ففعلنا . وحينئذٍ انتظمت حاشيتهُ امامنا في شكل قوس وهي مؤلفة من نحو مئة نفس وجعلوا يطلقون البنادق وهم يصرخون « اهلاً بابناء السلطان ومرحباً بابناء الخليفة » . فلما دخلنا الخيمة وتقدمنا للثم يديهِ نهض لتحيتنا وهكذا يفعل مع جميع الذين يزورونهُ حتى العبيد السود . وكان حافي القدمين يجلس على حصير و يلبس قميص حرير طو بلاً يصل الى قدميهِ و يرتدي من الحرير فوقهُ و يغير قميصهُ كل يوم وهو في الثالثة والاربعين من عمره معتدل القامة بادي

مدينة جنبوب

حارس السيد السنوسي رحواده

مقتطف ايريل ١٩١٦

امام الصفحة ٣٦٧

الى السمن اسمر البشرة اسود العينين قصير شعر اللحية والشارب بين عيناهُ تتوقدان ذكاء وتخترق نفس جليسهِ . وعلى رأسهِ طاقية مكية وحولها عمامتهُ . فقدمنا اليهِ رايةً عثمانية موشحة بالآيات القرآنية فقبلها ثم جلس واشار الينا بالجلوس وقال «مرحباً» وسكت وبعد دقيقة قال «مرحباً» وسكت هنيهة ثم رفع يديهِ وعينيهِ وقرأ الفاتحة . ومعنى ذلك عند السنوسيين « ان الجلسة انتهت لان كل كلام بعد كلام الله عبث بل حرام » فنهضنا وخرجنا فعين لنا احد اتباعهِ المكان الذي ننصب فيهِ خيمتنا ثم جاءنا بشيء من الطعام . وفي الغد ركب السيد جوادهُ وارتحل في جهة جغبوب يحفهُ مئة من خدمهِ السود وكان معهُ سيفان وبندقية من طرز ليل غنمها من الفرنسويين في حرب ودّاي . فتبعناهُ على الاثر وكان معهُ الدكتور حافظ عفيفي ارسلهُ قومندان بنغازي عزيز بك امامهُ الى جالو ثم رافقهُ الى جغبوب . وقبل دخولنا جغبوب بقليل ترجل السيد وسائر الذين معهُ ومشوا اليها حفاة وفي رأسهم الرايتان المشار اليهما آنفاً فاخذت صورة الموكب خلسة ولو رآني لاهانني من بعد الاهانة ورماقلوني

ولما دخلنا جغبوب توجه السيد الى الجامع وحدهُ وصلى عند ضريح جدهِ . وبلغ عدد الذين كانوا هناك تلك الليلة ١٥٠٠ نفس فامر فذبح ١٢ جملاً ووُزع لحمها عليهم وكثير من اكياس الرز فطبخت في مراجل كبيرة وجلس الجميع طول ليلتهم يأكلون ويتسامرون والسيد في غرفتهِ قائم يصلي . وكانت تلك الليلة ليلة السابع والعشرين من رمضان وقد اراد السنوسي ان يكون وصولهُ الى ضريح جدهِ في ذلك اليوم ليحيي تلك الليلة ليلة القدر في الصلاة امامهُ

وفي ٩ سبتمبر وصل رسولان آخران من قبل انور بك يحملان الهدايا وهما حلمي بك سكرتيرهُ الخاص والشيخ صالح التونسي وانضما الينا . وفي ذلك اليوم عينهِ ابلغنا السيد انهُ يستقبلنا الساعة العاشرة مساء . فقصدنا اليهِ في الساعة المضروبة فاستقبلنا واقفاً كعادتهِ . ثم جلس واخذ علينا ان نجلس وجعل يستخبرنا عن اشخاصنا وعائلاتنا ومواشينا وحالة الزراعة في بلادنا . وكان طول وقتهِ جالساً ويداهُ متقاطعتان وهو مائل برأسهِ وسائر بدنهِ الى جهة ومطرق الى الارض وقلما يحدق ببصرهِ الى مخاطبهِ . ومن عادتهِ الاصغاء الى ما يقول مجالسهُ فاذا فرغ اجابهُ بلفظ موجز تلا بكور ما قال من الكلام ولا ينقض ما ابرم من الاحكام

فبسطنا لهُ المهمة التي جئنا بها فقال لنا «هذا حرم وارض مقدسة . وهنا بيتي استقبلكم فيهِ كضيوف وليس لاحد غيري سلطة عليهِ »

ثم قرأ الفاتحة فخرجنا من لدنهُ وعاد اليهِ نوري بك وحدهُ ليكلمهُ سرًّا وليقدم اليهِ

هدايا السلطان وهي علبة فيها ساعة مرصعة بالماس وسيف مرصع وياشمين وتجاجيد وثوب تشريفة كالذي يلبسهُ شيخ الاسلام والنجمة ثمينة وحق نشانهِ . فقبل الهدايا وعرضها على الجمهور شهادة بكرم السلطان وقال ان قوانينهُ لا تسمح لهُ بلبس الذهب والانجمة الثمينة والجلوس على الطنافس و بقيت تلك الجلسة معقودة حتى نصف الليل

وفي غد ذلك اليوم جاءتنا الهدايا منهُ وهي جبة مصرية وقميص وبرنس وطربوش لكل منا . وفي اليوم عينهِ صنع لنا مأدبة كان عدد المدعوين اليها اربعين نفساً . اما هو فلم يحضرها بل اكل وحدهُ على عادتهِ . ولكنهُ بعد الطعام شرب الشاي معنا وهو شاي اخضر معطر بالعنبر . ودافع عن نفسهِ مما اتهم بهِ من الاشتغال بالسياسة وقال انما هو رجل عابد مشغول بالدفاع عن الايمان

هذا والهدايا تأتيهِ من جميع العالم الاسلامي بطريق سيوى . وسراسلهُ كثار وهو يأمر كتبتهُ بالرد على كل كتاب يردهُ والكتب التي يكتبونها ذات صيغة واحدة مفعمة بالعبارات الدينية و يضيف الى كل منها بعض كلمات بخط يدهِ

وفي ١٢ سبتمبر كان عيد الفطر فصلينا معهُ صلاة الجماعة . وفي شهر الصيام يصلي صلاة سادسة غير الصلوات الخمس وذلك ايام الجمع وهي صلاة التراويح تبدأ نحو الساعة العاشرة مساء وتنتهي عند الفجر فيتلى فيها القرآن كلهُ والسامعون وقوف — يتلوهُ شيخ الزاوية وامام الجامع وهو سوداني . و يشهد السنوسي الصلاة وسط القوم لا يميزهُ عنهم شيء

ودعانا للغداء في ايام العيد الثلاثة . ولما انست بهِ استأذنتهُ في تصوير صورتهِ الفوتوغرافية واريتهُ الآلة وشرحت لهُ عملها . ولو كان فيها الواح لتمكنت من اخذ صورتهِ من غير ان يشعر بذلك . ولما لم يجب قلت ان ذلك غير محظور شرعاً فانا اعرف ديني وهو انما ينهى عن اقامة الاصنام والانصاب التي لها ظل . وان كان في ذلك معصية فانت تستطيع ان تخيرني بوجه المعصية لانك ولي كبير . اما انا فاريد ان يرى جميع المسلمين وجه السنوسي العظيم . قال ليس في ذلك محذور حقيقة ولكن قومي واهل جنوب على جانب كبير من الجهل فربما حملوا تصويري على محمل سوء وفسروهُ بغير المراد منهُ . فلم يسعني الا الخاف فاستأذنت في تصوير جوادهِ وسيفهِ فاذن لي في ذلك

وظهر لنا انهُ لا يفرق بين فرنسا وايطاليا وامور اخرى من هذا القبيل . فاوضحنا لهُ ذلك فاصغى الينا تمام الاصغاء من غير ان يقطع الكلام علينا او يسأل سؤالاً . واخيراً قال « اما انا فلا اعلم غير امر واحد وهو انما المسلمون جميعاً اخوة »

وبعد عشرين يوماً مرت على اقامتنا بجغبوب صرف قومهُ كلاً الى وطنهِ . واستقبلنا لآخر مرة ورد لنا الزيارة في منزلنا وقرأ لنا الفاتحة ثم قال « عودوا الى معسكركم واقرأوا على اخي النور السلام فان الله ارسلهُ الينا » فطلبنا منهُ ان يصحبنا بكتاب اليهِ . فقال ان ذلك لا يليق بعدما ارسل النور وفدهُ اليهِ وانهُ هو سيرسل الرسل اليهِ ومعهم كتب منهُ

خرجنا من جغبوب في ٢٨ سبتمبر فماتت خيلنا و بعض جمالنا في الطريق لشدة الحرّ وقلة الماء وكدنا نحن نهلك عطشاً قبل بلوغنا آبار اتيم

ولما بلغنا درنه رأينا ان الحالة زادت تحسناً عما كنا نعهدها قبل سفرنا الى جغبوب وكنا موقنين بالنصر الاخير لو لم تنشب الحرب بين الدولة وممالك البلقان فاضطر انور الى السفر ولكنهُ كان قد حلف للعرب بان يقاتل معهم حتى الموت . فعزم على السفر الى السنوسي ليحملهُ من بينهِ هذه فركب الاتومبيل الى جغبوب فبلغها في يوم ونصف يوم ثم عاد الى درنه واختفى بدعوى انهُ مسافر الى بنغازي

ولما بلغتُ السلوم في رجوعي اروني هدايا ارسلتها الحكومة الايطالية الى السيد السنوسي فرفضها . منها طقم للشاي من الذهب الخالص وقالوا ان هناك هدايا اخرى مثل حليّ وحلل وغير ذلك

وبقي السيد السنوسي بعد ارتحالنا يقاوم الطليان في برقة . وقدم درنه حيث التقى بعزيز بك قومندان بنغازي وكان قد جاء درنه ليتولى القيادة مكان انور . فاقام السيد السنوسي احتفالاً كبيراً بادى فيهِ جميعين عزيز بك وزيراً لحربيتهِ وابلغ العرب ان انور انما سافر الى الاستانة باذنهِ و بامرهِ وانهُ سيعود يوماً ليقودهم ثانية وفي خلال ذلك يجب عليهم اطاعة عزيز بك كما اطاعوا انور وان الله ونبيهُ يدعوانهم لجهاد الطليان . وارسل اخاهُ سيدي محمد العبد الى بنغازي ليتولى القيادة مكان عزيز بك

انتهى ما لخصناهُ من مقالة المسيو ديون . وقد ارسل الالمان والاتراك الضباط والاسلحة الى السيد السنوسي ونظموا لهُ جيشاً من العرب لكي يغزو القطر المصري فيضطر الانكليز الى ابقاء قوة كبيرة فيهِ للدفاع عنهُ . وحمل هؤلاء الجنود على تخوم مصر الغربية مراراً فآبوا بالفشل وقتل واسر منهم خلق كثير وجرح قائدهم جعفر باشا وأُخذ اسيراً . ويقال ان السيد السنوسي يتنصل مما فعلهُ الاتراك والالمان و يقول انهُ كان على غير ارادتهِ . وعسى ان تحقق الحكومة العثمانية ان محاربتها للحلفاء باغراء المانيا مضرٌّ بها فتترك الالمان وتبطل اغراء العرب وتتفق مع الحلفاء على ما فيهِ مصلحتها الحقيقية